البحث رقم (٧)

القضاء والقدر عند الخازن في تفسيره

الأستاذ المساعد الدكتور
محمد سلمان داود
جامعة الأنبار
كلية العلوم الإسلامية

الطالب
عبد القادر أكرم إبراهيم
كلية العلوم الإسلامية
الدراسات العليا

أ.م.د. محمد سلمان داود
الطالب عبد القادر أكرم إبراهيم

تناول البحث المباحث العقائدية للإلهيات في كتاب لباب التأويل في معاني التنزيل وهذا الكتاب يعد من المصادر المهمة المعتمدة لدى كثير من الباحثين لأنه يتناول تفسير القران العظيم واعتمدت على هذا الكتاب لأنه تناول مباحث العقيدة واراء علماء الامة الإسلامية من المحققين وبث من خلالها مادة علمية ثرية لمن اراد الافادة منها وخاصة في مجال العقيدة الإسلامية. علما ان المسائل العقائدية تؤخذ من مضانها الصحيحة: القران الكريم والسنة النبوية الصحيحة ؛ لكي تنال القبول لدى الامة ان شاء الله.

FATE AND DESTINY
THROUGH THE INTERPRETATION OF AL-KHAZEN

Written by:
Ass. Prof. Dr. Muhammad S. Dawod
Mr. Abdul-Qader A. Ebraheem

Summary

The present thesis deals with jurisprudent extract taken from "Libab Al-Taweel fi Maani Al-Tanzeel" which is one of the most important references. It handles with explication of the Great Quran. The researcher has relied on the particular book for it's being rich in materials and containing the most reliable and trusted extracts for researchers. Besides, jurisprudent issues are to be taken from original sources, Holy Quran and Sunna.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم وبعد:

فالعقيدة اجل العلوم، ولا بد ان تؤخذ من مضانها القران الكريم والسنة الصحيحة، وهذا ما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع، كون الشيخ الخازن رحمه الله صاحب كتاب لباب التأويل من اجل شراح القران الكريم وكتابه كنز لم ينل حظا من الدراسة في هذا الجانب.

ووزعت البحث على مباحث بحسب الظاهرة التي درستها وهي:

التمهيد: حياة الخازن –رحمه الله–

المبحث الاول: معنى القضاء والقدر

المطلب الاول: تعريف القضاء والقدر لغة

المطلب الثاني: تعريف القضاء والقدر اصطلاحا

المطلب الثالث: تعريف القضاء والقدر مترادفان ام متغايران

المبحث الثاني: الاختلاف في مسالة القدر

المطلب الاول: مذهب الجبرية ومناقشتها

المطلب الثاني: القدرية والمعتزلة

المطلب الثالث: استدلالات القدرية والمعتزلة والرد عليها

المطلب الرابع: موقف اهل السنة من القضاء والقدر

المبحث الثالث: مسالة الكسب ومفهومها من خلال:

المطلب الاول: القران الكريم

المطلب الثاني: الاستدلال بالاحاديث النبوية الشريفة

المطلب الثالث: تأويلات اهل العلم من خلال الآيات والاحاديث الواردة.

التمهيد:

حياة الخازن رحمه الله

أولا: اسمه ونسبه: هو علي بن محمد بن ابراهيم بن عمر بن خليل الشيحي[١]، الشافعي[٢]، البغدادي[٣].

ثانياً: كنيته:

اتفق[٤] أصحاب الطبقات والتراجم، على ان الشيخ الخازن رحمه الله كان يكنّى أبو الحسن؛ وهي الكنية المشهورة بين أصحاب عصره، وكتب الطبقات[٥].

---

(١) الشِّيحي بكسر الشين المعجمة، وسكون الياء المنقوطة، وفي آخرها هاء مهملة مكسورة، وهي قرية من قرى حلب، وذكر ياقوت العمودي، هناك مواضع للشيحا فمنها (الشيحا) ماء معروفة شرقي فيد بينها مسيرة يوم وليلة، وان (الشيحا) موضع بالحزن من ديار بني يربوع، وقيل(الشيحا) ببطن الرمه . الشيحا: بكسر الشين عندما تذكر يقصد بها قرية من قرى حلب، وهذه القرية يقال لها شيح الحديد، وقد نسب إليها بعض الاعيان منهم: أبو قاسم التنوخي، وأبو الطيب الطبري، وأبو عبد الله القضاعي . ينظر الانساب، عبد الكريم محمد بن منصور السمعاني أبو سعد، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٣٨٢هـ – ١٩٦٢م: ٢٠٩/٨ – ٢١٠، ومعجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادق، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م: ٣٧٩/٣.

(٢) وهو شافعي المذهب علماً ان له تصانيف في هذا المذهب، ومنها: كتاب شرح فيه عمدة الأحكام للشيخ عبد الغنية المقدسي وسماه (عدة الافهام في شرح عمدة الاحكام) في فروع الشافعية. ينظر الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة، احمد بن علي بن حجر العسقلاني ،، تحقيق: محمد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م: ١١٥/٤، والاعلام، خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي، ط١، دار الملايين، ط١٥، ايار مايو، ٢٠٠٢م: ٥/٥ .

(٣) نُسب اسمه إلى بغداد؛ لأنه ولد ببغداد، وهي اصله وسكن بعد ذلك دمشق مدة من الزمن. ينظر المصدر السابق نفسه.

(٤) ينظر الوفيات، تقي الدين محمد بن هجرس بن رافع السلالي، تحقيق: صالح عباس، د. بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ: ٣٧١/١، طبقات الشافعية، أبو بكر بن احمد بن محمد الدمشقي ابن قاضي شهبه، تحقيق: د. عبد الحافظ خان، عالم الكتب، بيروت، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ –٤٢/٣، والدور الكامنة، ابن حجر: ١١٥/٤ ، والاعلام، الزركلي: ٥/٥ .

(٥) علماً اني بحثت في كتب الطبقات والتراجم فكانوا متفقين على إنّ كنيته (ابو الحسن) الا صاحب طبقات المفسرين انفرد عنهم بأن كنيته (أبو محمد)، والذي اثبته الذي اجمع عليه اهل التراجم وهو انه أبو الحسن . ينظر: طبقات المفسرين، احمد بن محمد الادنهوري، تحقيق: سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م: ٢٦٧، رقم ٣٢٥ .

كان يلقب بـ(علاء الدين)[١]. واما شهرته فهي (الخازن) وغلب عليه هذا اللقب؛ لأنه كان خازناً للكتب بالخانقاه[٢]، السميساطية[٣] في دمشق، وكانت خزانة المكتبة هي جزء من مدرسة التي كانت تحتوي دار ومدرسة ودار المناسبات، علماً ان المدرسة السميساطية قصدها الكثير من العلماء عبر العصور، وبلغت اعلى درجات الشهرة في التاريخ الإسلامي وهي الآن موجودة بنفس الاسم بجوار المسجد الأموي بدمشق، وهي منسوبة إلى أبو القاسم السميساطي وهو علي بن محمد من الأكابر من دمشق[٤].

ولد الشيخ الخازن رحمه الله في سنة (ثمان وسبعون وستمائة) للهجرة، في مدينة بغداد، وهي مدينة من مدن العراق، التي احتضنت هذا المولد الجديد الشيخ الخازن رحمه الله الذي يعتبر علماً من أعلام الأمة في التفسير والفقه والحديث والتاريخ[٥] .

وعلى ما يبدو ان بغداد الحبيبة هي مكان ولادة العلماء الكبار من أهل العلم والصالحين وانطلاقهم منها .

---

(١) ينظر: طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة: ٤٢/٣، والاعلام، الزركلي: ٥/٥ .

(٢) والخانقاه: كلمة معربة من كلمة فارسية اصلها (خانه كان) ; ومعناها: رباط الصوفية ومتعبدهم . ينظر تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن الرزاق الحسني الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية: ٣٧٤/٣٦، وينظر: المعجم البسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ابراهيم مصطفى، احمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة: ٢٦٠/١ .

(٣) السمساط: هي بلدة على شاطئ الفرات غربه في طرف بلاد الروم، وقيل: هي قلعة على الفرات، بين قلعة الروم وملطية . ينظر: الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد الدمشقي، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م: ١١٨/٢ .

(٤) ينظر: العباب الزاخر واللباب الفاخر، رضي الدين الحسن بن محمد العمري الصنعاني الحنفي، ٢٦٧/١، والدارس في تاريخ المدارس ،عبد القادر: ١١٨/٢ .

(٥) ينظر: معجم المؤلفين، عمر بن رضا بن محمد بن عبد الغني كحالة الدمشقي، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٧٧/٧ .

لم يزل الشيخ علاء الدين على جلالة قدره في النفوس، ومداومته أنواع البر والإحسان إلى إن اسلم الروح باريها توفي في شعبان سنة (إحدى واربعين وسبعمائة) في مدينة حلب في سوريا عن ثلاث وستين سنة قضاها في سبيل العلم وحلقاته طالباً وصوفياً مستقيماً ومؤلفاً[١]. ومن الجدير بالذكر ان احد الطبعات[٢] لهذا الكتاب، قد أوردت ان وفاته سنة (خمس وعشرون وسبعمائة) للهجرة، وعلى ما يبدو ان هذا التاريخ لم يجمع عليه اهل التراجم والطبقات، وإنما الذين اثبتوه هو بأن وفاته هو (إحدى واربعون وسبعمائة) للهجرة وهو الصحيح، والباحث يتفق مع ما اجمع عليه اهل الطبقات رحمهم الله؛ لأنه الأرجح والمشهور عندهم جميعاً[٣].

مسألة القضاء والقدر

من أهم المسائل الشائكة لدى المذاهب مسألة القضاء والقدر التي زلت بها أقدام كثير من الناس، فعند القراءة وجدت أن الشيخ الخازن–رحمه الله– قد بيَّن هذه المسألة ولكن في أماكن متفرقة من كتابه لباب التأويل وقبل الدخول إلى تفصيل المسألة لابد من عرض القضاء والقدر في المعنى اللغوي والاصطلاحي، ثم بيان المذاهب الكلامية التي تناولت مسألة القضاء والقدر ومن الله التوفيق.

---

(١) ينظر طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة: ٢٤٢/٣ .

(٢) والكتاب هو كتاب مطبوع بعنوان: (لباب التأويل في معاني التنزيل)، علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الشهير بالخازن، ضبطه وصححه عبد السلام محمد علي شاهين . منشورات، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، وهو موجود على الشبكة العنكبوتية الانترنت .

(٣) ينظر: طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة: ٤٢/٣ .

المبحث الأول:

معنى القضاء والقدر

المطلب الأول:

تعريف القضاء والقدر

أولاً: القضاء لغةً:

ذكر الشيخ الخازن–رحمه الله– تعريفاً لغوياً للقضاء بقوله: (والقضاء في اللغة على وجوه كلها ترجع إلى إنقضاء الشيء وتمامه والفراغ منه: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١]، أي: إذا أحكم أمراً وحكمه فإنما يقول له فيكون ذلك الأمر على ما أراد الله تعالى وجوده)[٢]، وعلى ما يبدو أن الشيخ الخازن–رحمه الله– قد بيَّن هذا التعريف على غرار المصادر اللغوية التي بيَّنت تعريف القضاء لغة. بدليل أنه نقل في تعريفه اللغوي كما ذكره صاحب تهذيب اللغة بقوله (وقضي في اللغة على ضروب كلها ترجع إلى معنى انقضاء الشيء وتمامه ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾[٣]، معناه ثم حتم بذلك وأتم. ومنه الأمر وهو قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٤].

لأن معناه أمراً ؛ لأنه أمر قاطع حتم، ومنه الاعلام وهو قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٥]، أي: أعلمناهم إعلاماً قاطعاً. ومنه القضاء والفصل في

---

(١) سورة البقرة: ١١٧.

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٧٤/١، ١٦٩/٤.

(٣) سورة الأنعام: ٢ .

(٤) سورة الإسراء: ٢٣ .

(٥) سورة الإسراء: ٤.

الحكم وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[١]، أي لفصل الحكم بينهم)[٢].

وقد بيَّن الشيخ الخازن أشكالاً من خلال عرضه للمادة اللغوية لهذه المسألة بقوله: (فإن قلت المعدوم لا يخاطب فكيف قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٣]، قلت: ان الله تعالى عالماً بكل ما هو كائن قبل تكوينه، وإذا كان كذلك كانت الأشياء التي لم تكن كأنها كائنة لعلمه بها فجاز أن يقول لها: كوني ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود وإن «اللام» في قوله تعالى «له» لام أجل فيكون المعنى إذا قضى أمراً، فإنما يقول لأجل تكوينه وإرادته له كن فيكون)[٤].

والمحصلة من ذلك ان معيار ومعنى كلمة (القضاء) هو لسان العرب الذي نزل القرآن بلغتهم، فإن معناه من جميع الوجوه تشتمل على الإتمام والحكم فكل ما أحكم فقد قضي: (تقول قد قضيت هذا الثوب وقد قضيت هذه الدار اذا عملتها وأُحكمت عليها قال أبو ذؤيب[٥]:

وعليهما مسرودتان قضاهما ** داود أوضع السوابغ توبعوا

---

(١) سورة الشورى: ١٤ .

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري: ١٦٩/٩-١٧٠، مادة (قضي) وينظر لسان العرب، ابن منظور ١٨٦/١٥، مادة (قضي)، ولباب التأويل، الخازن: ٧٤/١ .

(٣) سورة الأنعام: ١١٧ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٧٤/١.

(٥) خويلد بن خالد بن محرِّث أبو ذؤيب من بني هذيل بن مدركة المضري شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وعاش إلى أيام عثمان بن عفان ﷺ من أشهر شعره عينية رثى بها خمسة أبناء له أصيبوا بالطاعون في عام واحد مطلعها: (أمن المنون وريبة تتوجع) توفي سنة ٢٦هـ . ينظر الاعلام، الزركلي ٣٢٥/٢ .

ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾[١].

أي: فخلقهن وأحكمهن وقضاهن)[٢].

ثانياً: القدر لغة: (مصدر قدر: القدر القضاء الموفق، يقال قدره الله تقديراً. إذا وافق الشيء شيئاً قيل: جاء على قدره. والمقدار: اسم القدر إذا بلغ العبد المقدار مات. والأشياء مقادير أي: لكل شيء مقدار وأجل والمطر ينزل بمقدار أي: بقدر وقدر مثقل ومجزوم وهما لغتان. والقدر مبلغ الشيء وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[٣]، أي وصفوه حق وصفه)[٤].

وفي هذا المجال يذكر صاحب المفردات كلام فيه فائدة في موضوع القدر فيقول: (يقال قدَّرَني الله على كذا وقوَّاني عليه فتقدير الله الأشياء على وجهين: الأول: بإعطاء القدرة. الثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص حسب ما اقتضت الحكمة ؛ وذلك أن فعل الله عز وجل ضربان:

أ. ضرب أوجده بالفعل ومعنى إيجاده بالفعل أي: أبدعه كاملاً دفعةً لا تعتريه الزيادة والنقصان إلى أن يشاء أن يفنيه أو يبدله كالسماوات وما فيها.

ب. ومنها ما جعل أصوله موجودة بالفعل وأجزاءه بالقوة وقدَّره على وجه لا يتأتى منه غير ما قدره فيه كتقديره في النواة أن ينبت منها النخل دون التفاح والزيتون، وتقدير منيّ الإنسان دون سائر الحيوانات فتقدير الله تعالى على وجهين:

---

(١) سورة فصلت: ١٢ .

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري: ١٧٠/٩ مادة (قضاء) .

(٣) سورة الأنعام: ٩١ .

(٤) تهذيب اللغة، الأزهري: ٣٧/٩ مادة (قدر) .

الوجه الأول: بالحكم منه أن يكون كذا أو لا يكون كذا إما على سبيل الوجوب، وإما على سبيل الإمكان، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[١].

والوجه الثاني: بإعطاء القدرة عليه وقوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[٢]، تنبيهاً إن كل ما يحكم فهو محموداً في حكمه)[٣].

المطلب الثاني

تعريف القضاء والقدر اصطلاحاً

عرّف الشيخ الخازن رحمه الله القضاء والقدر حسب أقوال أهل العلم عند تفسيره لسورة القمر قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٤]، في فصل سبب نزول الآية[٥] وما ورد في القدر وما قيل فيه[٦] عند عرضه لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)[٧]. أما أقوال أهل العلم فكانت كالآتي:

أ. قال الإمام الخطابي رحمه الله :<< إن معنى القضاء والقدر، الاخبار عن تقدم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد واكسابهم وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها، والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر، يقال قدرت الشيء

---

(١) سورة الطلاق: ٣ .

(٢) سورة المرسلات: ٢٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني: ٦٥٧-٦٥٨، مادة (قدر) .

(٤) سورة القمر: ٤٩ .

(٥) عن أبي هريرة ﷺ قال: (جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾).

(٦) ينظر لباب التأويل، الخازن: ٢٢٢/٤ .

(٧) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٢٦٥٣، ٢٠٤٤/٤ .

وقدرت خفيفة وثقيلة بمعنى واحد. والقضاء في هذا معناه: الخلق كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾[١]، أي خلقهن)[٢].

ب. قال الإمام النووي رحمه الله: (إن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع حسب ما قدّرها الله تعالى)[٣].

ج. بيَّن الشيخ الخازن–رحمه الله– القضاء عند تفسيره لسورة البقرة قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤]، قال: (البديع الذي يبدع الأشياء أي: يحدثها مالم يكن، وإذا قضى أمراً أي: قدره وأراد خلقه أي: أحكمه أمراً وحتمه وأتقنه)[٥].

وأما القدر فقد فصَّل الشيخ الخازن–رحمه الله– عند عرضه لأحاديث رسول الله ﷺ التي أوردها عند تفسيره لسورة القمر بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[٦]، ومفاد قوله: (وأما معاني الأحاديث المتقدمة، فقوله: جاء مشركو قريش إلى قوله إنا كل شيء خلقناه بقدر المراد بالقدر هنا القدر المعروف: وهو ما قدره الله تعالى وقضاه وسبق به علمه وإرادته فكل ذلك مقدوراً في الأزل معلوم لله تعالى مراد له، وكذلك قوله ﷺ: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء)[٧]. المراد منه تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل القدر فإن

---

(١) سورة فصلت: ١٣ .

(٢) معالم السنن، الخطابي: كتاب شرح السنة، باب القدر، ٣٢٢/٤، وينظر لباب التأويل، الخازن:٢٢٣/٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي :١٥٤/١، وينظر: لباب التأويل، الخازن :٢٢٣/٤.

(٤) سورة البقرة: ١١٧ .

(٥) لباب التأويل، الخازن: ٧٤/١ .

(٦) سورة القمر: ٤٩ .

(٧) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٢٦٥٣، ٢٠٤٤/٤ .

ذلك أزلي لا أول له وقوله (وعرشه على الماء) أي: قبل أن يخلق السموات والأرض وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[١]، حتى العجز والكيس[٢] أو قال الكيس والعجز. العجز: عدم القدرة، ويحتمل العجز عن الطاعات ويحتمل العموم عن أمور الدنيا والآخرة. والكيس ضد العجز وهو النشاط والحدق في الأمور ومعنى الحديث أن العاجز قدر عجزه والكيس قدر كيسه)[٣].

المطلب الثالث

القضاء والقدر مترادفان أم متغايران

لم يصرح الشيخ الخازن في كتابه أنَّ هناك ثمة فرق بين القضاء والقدر، ولكن عند القراءة في تفسيره وجدناه جعل القدر في المرتبة الثالثة والقضاء في المرتبة الرابعة وهو مستنبط من قوله: (المراد بالقدر هنا القدر المعروف وهو ما قدره الله وقضاه وسبق به علمه وإرادته)[٤].

علماً أن بعض العلماء فرَّقَ بين القضاء والقدر كما أنهما مختلفان باللفظ فكذلك مختلفان في المعنى فكل منهما له حقيقته ونوردها لغرض الفائدة وإكتمال المسألة :

أ. قال ابن حجر–رحمه الله–: (القضاء: هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال بالأزل أي أنه عام لجميع ما قضاه الله–عز وجل–. والقدر: هو الحكم بوقوع الجزئيات لتلك الكليات على سبيل التفصيل)[٥].

---

(١) سورة القمر: ٤٩ .

(٢) وتمام الحديث: عن عبد الله بن عمر–رضي الله عنهما– قال الرسول ﷺ :(كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، رقم ٢٦٥٥، ٢٠٤٥/٤، وينظر: لباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤ .

(٣) لباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤ .

(٥) فتح الباري، ابن حجر: ١٤٩/١١ .

ب. القضاء: (هو تعلق علم الله وإرادته بالأزل؛ لأن الشيء يكون على الوجه المخصوص من الوجوه الممكنة، والقدر: وقوع الأشياء فيما لا يزال على وفق ما سبق في الأزل)[١].

ج. (القضاء: هو علم الله تعالى السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر: وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق)[٢].

د. وجمع الإمام ابن حجر أقوال العلماء-رحمهم الله-بالقضاء والقدر ومفاد قولهم: (قال العلماء: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله)[٣].

وعلى ما يبدو من أقوال أهل العلم في بيان الفرق بين القضاء والقدر، بأنه توجد بينهما مراتب وهذه المراتب يحددها العلماء بالميل ولتقريب الصورة لهذه المسألة نذكر قول صاحب معجم الفروق اللغوية عند بيانه بالفرق بين الإرادة والمشيئة بقوله: (فالمشيئة قبل الإرادة، والإرادة قبل القدر، والقدر قبل القضاء، والقضاء قبل الإمضاء وهو الخلق، وهو إبراز المعدوم في الوجود وتأليفه وتركيبه، فالمشيئة بالنسبة إلينا هي الميل الأول بعد حصول العلم بالشيء.

والإرادة: هي الميل الثاني القريب بعد أن تنشطت النفس إلى فعله، وصممت على إيجاده. والقدر: هو التقدير بالمقدار طولاً وعرضاً مثلاً. والقضاء: هو التقطيع والتأليف. والإمضاء: هو إبراز الصنعة في عالم المصنوع)[٤].

---

(١) وهو قول الشيخ محمد رضا رشيد، ينظر تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٩٥/٤، ومنهج الشيخ محمد رضا في العقيدة، تامر متولي، دار ماجد، ط١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، ٥٩٣ .

(٢) القضاء والقدر، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٣، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م، ٢٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر: ٤٧٧/١١ .

(٤) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله أبيات، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٢هـ :٣٨ .

ولمزيد من الفائدة نذكر مثالاً في المحسوس ولله المثل الأعلى: (هو إنّك إذا أردت أن تخيط ثوباً فلا بد أن تكون عالماً بالعلة الغائية[١] التي هي المرتبة الأولى، فيحصل لك ميل إلى لبس الثوب، وهذا هو المشيئة وهي المرتبة الثانية، فيدعوك ذلك الميل إلى لبسه إلى الميل إلى خياطته وتقطيعه وهذا هو الإرادة وهي المرتبة الثالثة. فتقدره أولاً قبل تقطيعه لئلا يحصل فيه الزيادة والنقصان وهذا هو القدر وهي المرتبة الرابعة فتقطعه بعد ذلك على حسب وضع الثوب في كيفيته، فيحصل الغرض المقصود منه وهذا هو القضاء وهي المرتبة الخامسة، ثم تؤلف تلك الأجزاء وتضعها في مواضعها وهذا هو الإمضاء وهو الخلق، وهو الصنع والتصوير)[٢].

وعلى ما يبدو أن هذا المثال في المحسوس قد بسط الصورة لمعرفة بيان القضاء والقدر، علماً أن أفعال الله عز وجل ليست كأفعال العباد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣]، ولكن أثبتنا المقال لغرض أن تصل المعلومة إن شاء الله.

---

(١) هي ما لأجله الإيجاد، وهي علة بماهيتها إذ تقدمها إنما يكون في العقل ومعلولة بوجودها، إذ وجودها يتوقف على تحقق المعلول . والعلة نوعان :

أ. علة فاعلية وهي سبب وجود الشيء، فيقال علة وجود الخلق قدرة الله وخلقه مثال قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يس:٨٢ .

ب. علة غائية وهي الغاية من وجود الشيء فيقال: علة وجود الخلق عبادة الله تعالى مثال قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، الذاريات:٥٦، وأما المباين فينقسم إلى ما منه الوجود وليس الوجود لأجله وهو العلة الفاعلية كالنجار للسرير وإلى ما لأجله وجود المعلول وهو العلة الغائية كالصلوح للجلوس للكرسي والسرير . ينظر: معيار العلم في فن المنطق، أبو حامد بن محمد بن محمد الغزالي، د. سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م :٣٣١، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو، بدون طبعة:٣٤٤، وتاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، مكتبة الدراسات الفلسفية، ط٥: ٣٨٥هـ،١٨٧-١٨٩.

(٢) معجم الفروق اللغوية، العسكري: ٣٨ .

(٣) سورة الشورى: ١١.

علاوة على ذلك أن القضاء والقدر أمران لا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر علماً أنهما أصلاً من أصول الدين وإن الإيمان به واجب، وأنه أحد أركان الإيمان كما قال النبي ﷺ لجبريل–عليه السلام– حين سأله (ما الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)(١) وما روي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا إله إلّا الله وإنّي رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر)(٢).

والمحصلة من ذلك كله (إن القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه)(٣).

علماً أن الشيخ الخازن–رحمه الله– أكد على مسألة إثبات القدر بدليل قوله (وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله عز وجل وقد قرر ذلك أئمة المتكلمين أحسن تقرير بدلائله القطعية السمعية والعقلية والله أعلم)(٤).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامات الساعة، رقم٨، ٣٦/١.

(٢) سنن الترمذي، أبواب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، رقم ٢١٤٥، ٤٥٢/٤، وهو الذي يرويه عن ربعي بن حراش، وقال عنه الإمام الترمذي: قال سمعت وكيعاً يقول بلغنا أن ربيعاً لم يكذب في الإسلام كذبة، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٢٢٢/٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن محمد الجزري إبن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ–١٩٧٣م، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمد الطناحي: ٧٨/٤ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤ .

المبحث الثاني

الاختلاف في مسألة القدر

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلّا به، وإنّ الإنسان قد يخرج من دائرة الإيمان، إن لم يؤمن بالقدر فهي مسألة مهمة أكد عليها رسول الله ﷺ في حديث جبريل–عليه السلام– عند سؤاله للرسول ﷺ عن الإيمان وجعلها العلماء أصلاً من أصول الإيمان الخمسة[١] عن عمر بن الخطاب–رضي الله عنه–: ما الإيمان ؟ قال ﷺ: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال جبريل عليه السلام: صدقت)[٢].

علماً أن الشيخ الخازن–رحمه الله– قد بيّن هذه المسألة في ثنايا تفسيره المبارك؛ لكونها مسألة مهمة إصطدم بها أهل السنة والجماعة مع إعتقادات المذاهب الأخرى في مسألة القدر. وعليه فلا بد من بيان هذه المذاهب وآراءهم في المسألة فأعددت مطالب لهذه المذاهب لكي تكتمل الفائدة إن شاء الله.

المطلب الأول

مذهب الجبرية ومناقشته

الجبر لغة: (خلاف القدر، والجبرية بالتحريك خلافه القدرية وهو كلام مولد، والجبر: الإسم، وهو أن تجبر إنساناً على ما لا يريد وتكرهه جَبَريَّة على كذا)[٣].

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم، النووي: ١٥٧/١، والقضاء والقدر، عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٣، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م: ١١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم ٨، ٣٦/١.

(٣) العين، الخليل: ١١٥/٦ مادة(جبر)، وينظر لسان العرب، ابن منظور: ١١٦/٤ مادة جبر

وقد بيَّن الشيخ الخازن–رحمه الله– مذهبهم[١] في تفسيره عند تفسيره لسورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾[٢]، (فإنّ الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لو شاء الله منا ألّا نشرك ولمنعنا من هذا الكفر وحيث يمنعنا عنه ثبت أنه مريداً له، وإذا أراده منَّا إمتنع تركه منا)[٣].

ففي تقديرات مذهب الجبر ان الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالإستطاعة، وإنما هو عبدٌ مجبر في جميع أفعاله، والخلاصة من ذلك المذهب أن: (العبد ليس له شيء في عمله الإختياري، لا خلق ولا إبداع ولا كسب وان العبد لا فعل له أصلاً وأفعاله عنده كصفاته، كطوله، ولونه، وشكله فهي أفعال مخلوقة لله، وليس للعبد فيها مشيئة ولا إختيار ولا قدرة، بل هو مضطرٌ لها كحركة المرتعش والنائم وحركة الريشة في مهب الريح، فهذه طريقة الجبرية الذين يقولون أن العبد مجبور على أفعاله)[٤].

---

(١) الجبرية أصناف الأولى: الجبرية الخالصة: وهم أصحاب جهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم، وهم الذين قالوا: إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالإستطاعة وإنما هو مجبوراً في أفعاله لا قدرة له، ولا إرادة ولا إختيار ونسبة الأفعال إلى المخلوق على سبيل المجاز وقالوا بخلق القرآن كذلك وتعطيل الله عن صفاته.

الثانية: المتوسطة، وهي التي تثبت للعبد قدرة ولكنها غير مؤثرة، ينظر: نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد علي المريسي الجهمي العنيد فيما إفترى على الله من التوحيد، تحقيق: رشيد الألمعي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، والملل والنحل، الشهرستاني: ٨٥ .

(٢) سورة الأنعام: ١٤٨ .

(٣) لباب التأويل، الخازن: ٢/ ١٦٩ .

(٤) شرح القصيدة الدالية، أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكالوذاني الحنبلي، شرح عبد الرحمن البراك، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، عناية ياسر العسكر: ٨٩–٩٠، وينظر: التوحيد، الماتريدي: ٣١٩، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي: ٦٨ .

فبعد بيان مذهب الجبرية الفاسد، عرض الشيخ الخازن رحمه الله إستدلالاتهم على آرائهم ثم قام بالرد عليه ما يراه مناسباً ومنها ردوده على ذلك المذهب الفاسد. كما جاء في تفسير بمواضع متفرقة حسب الآيات الدالة على مسألة القضاء والقدر ونسبة أفعال العباد لها والتي سنوردها إن شاء الله .

أ. استدل الجبرية بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾[١]، ودليل إستدلالهم بهذه الآية هو قول الخازن بعد عرضه سياق هذه الآية وتفسيره لها: (وهذا مذهب الجبرية وهو قولهم: لو شاء الله منا أن لا نشرك لن نشرك ولمنعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت أنه مريد له، وإذا أراده منا أمتنع تركه منا)[٢].

وقد رد الشيخ الخازن قولهم الفاسد بقوله: (وأجيب عن هذا بأن الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا لو شاء الله ما أشركنا، وهذا التكذيب ليس هو في قولهم لو شاء الله ما أشركنا، بل ذلك القول حقٌ وصدق، ولكن الكذب في قولهم أن الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[٣] فرد عليهم بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[٤].

والدليل أن التكذيب في قولهم: إن الله أمرنا بهذا ورضيه منا لا في قولهم لو شاء الله ما أشركنا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[٥]، بالتشديد ولو كان

(١) سورة الأنعام: ١٤٨ .
(٢) لباب التأويل، الخازن: ١٦٩/٢ .
(٣) سورة الأعراف: ٢٨ .
(٤) سورة الأعراف: ٢٨ .
(٥) سورة الأنعام: ١٤٨ .

خبر من الله عن كذبهم في قوله: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾[١]، لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب)[٢] .

ب. وقد رد عليهم الشيخ الخازن-رحمه الله- على مذهبهم الباطل في موطنين من تفسيره في سورة هود[٣]، وسورة الليل[٤]، عند عرضه لحديث رسول الله ﷺ (فعن علي بن ابي طالب ﷺ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس، وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد إلّا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. وزاد الإمام مسلم إلا وقد كتب شقي أم سعيد فقال يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾[٥])[٦].

فقال الشيخ الخازن: (وهو دليل لأهل السنّة وحجة قولهم في القدر، وان التوفيق والخذلان والسعادة والشقاوة بيد الله تعالى ووجوب العمل لما سبق له في الأزل)[٧].

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٨ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ١٦٩/٢-١٧٠.

(٣) لباب التأويل، الخازن: ٥٠٣/٢.

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٤٣٤/٤ من سورة الليل: ٦.

(٥) سورة الليل: ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ .

(٦) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله، رقم ١٣٦٢، ٩٦/٢، وصحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وشقاوته وسعادته، رقم ٢٦٤٧، ٢٠٣٩/٤ .

(٧) لباب التأويل، الخازن: ٤٣٤/٤ .

وفيه رد على أهل الجبر بأن (المجبر لا يأتي بشيء إلا وهو يكرهه والتيسير ضد الجبر ألا ترى قول الرسول ﷺ (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما أستكرهوا عليه)[١] والتيسير هو أن يأتي الإنسان الشيء وهو يحبه)[٢].

ج. عرض الشيخ الخازن–رحمه الله– في سورة طه بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[٣]، فعرض حديثاً ومفاده عن أبي هريرة–رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: (إحتج آدم وموسى. فقال موسى: يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة. فقال آدم: أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيديه أفتلومني على أمر قدره الله تعالى علي قبل أن يخلقني بأربعين عاماً فحج آدم موسى)[٤].

فقال الشيخ على معنى هذا الحديث وشرحه: (قوله إحتج آدم وموسى، المحاجة: المجادلة والمخاصمة. يقال: حاججت فلاناً فحججته أي: جادلته فغلبوه. والقدر: اسماً لما صدر مقدراً عن فعل القادر. والقضاء في هذا معناه. الخلق واذا كان الأمر كذلك فقد بقي عليهم من ورائه علم الله فهي أفعالهم واكسابهم، ومباشرتهم الأمور وملابستهم إياه عن قصد وتعمد وتقدم إرادة واختيار فالحجة انما تلزمهم بها، والأيمة تلحقهم عليها، وإنما موضع الحجة لآدم على موسى أن الله تعالى كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يرد علم الله تعالى فيه وأن يبطله بعد ذلك، وإنما كان تناوله للشجرة سبباً لنزوله إلى الأرض التي خلق لها، وإنما أدلى آدم بالحجة على

---

(١) وهو المروي عن إبن عباس–رضي الله عنهما–، صحيح ابن حبان، باب فضل الامة، ذكر الأخبار عما وضع الله فضله عن هذه الأمة، رقم ٧٢١٩، ٢٠٢/١٦، وقال عنه محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين ورجاله ثقات غير بشر بن بكر فمن رجال البخاري.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال: ٣٤٩/٣، وينظر: لباب التأويل، الخازن: ٤٣٤/٤–٤٣٥ .

(٣) سورة طه: ١٢١ .

(٤) متفق عليه صحيح البخاري، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم ٦٦١٤، ١٢٦/٨، وصحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى–عليهما السلام–، رقم ٢٦٥٢، ٢٠٤٢/٤ .

هذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه ولذلك قال: أتلومني على أمر قدره الله علي من قبل أن يخلقني)[١].

فعلى ما يبدو بعد القراءة في تفسير الشيخ الخازن–رحمه الله– وملاحظة شرحه للآيات القرآنية الكريمة، إنّ مذهب الجبرية مستمد من كلام الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[٢]، فهذا دليل على استنباط مذهبهم الباطل، أما ما يقولون أن أفعال العباد مخلوقة لله فهذا حق، أما قولهم أنها ليست لأفعال للعبد حقيقة وان إضافتها ونسبتها إليه نسبة مجازية، وان العبد لا مشيئة له ولا إختيار فهذا باطل، وان افعاله وحركاته كالجماد مثل حركة الآلة التي هي جماد ليس لها إرادة ولا مشيئة وانما تتحرك بحسب وترتيب من صانعها[٣] .

وقد أفاد الإمام جعفر الصادق–رضي الله عنه– عندما سأل عن الجبر فقيل له: (هل أجبر الله العباد ؟ قال: الله أعدل من ذلك. قيل: هل فوض اليهم؟ قال: الله أعز من ذلك؛ لو أجبرهم أجبرهم على ذلك ما عذبهم، ولو فوض اليهم ما كان للأمر والنهي معنى. قيل: فكيف نقول إذن قال: منزلة بين منزلتين هي أبعد مما بين السماء والأرض، ولله في ذلك سر لا تعلمونه)[٤].

والحاصل من أقوال الشيخ الخازن وأهل العلم–رحمهم الله– أن هذا المذهب باطل؛ وان الله تعالى قد بيَّن للإنسان طريق الحق وطريق الشر بدليل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٥].

---

(١) لباب التأويل، الخازن: ٣/ ٢١٥ .

(٢) سورة الأنعام: ١٤٨ .

(٣) شرح العقيدة الدالية، الكلواذاني: ٩٠ .

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال: ٣١٨/١٠ .

(٥) سورة الإنسان: ٣ .

المطلب الثاني

القدرية والمعتزلة

امتاز الشيخ الخازن–رحمه الله– بأن جمع في كتابه لباب التأويل عند بيانه مسألة القضاء والقدر ببيانه للمذاهب المختلفة في هذه المسألة المهمة فبعد ما بيَّنا مذهب الجبرية، نفصل القول لمذهب القدرية[١] والمعتزلة، وسبب جمعهم في مطلب واحد؛ لأن الشيخ على ما يبدوا جمعهم في تفسيره بطرح آرائهم في المسألة والرد عليهم، وانهما اتفقا في الرأي في مسألة القضاء والقدر[٢]. وقبل البدء بهذه المسألة نذكر صورة موجزة عن كلا المذهبين لتكتمل الصورة:

أولاً: **القدرية**: سمو بالقدرية؛ لأنهم نفوا القضاء والقدر، وأنكروا العلم الأزلي، ونفوا كتابة الحوادث قبل حدوثها بقولهم (ان الأمر أُنُف)[٣]، أي: مستأنف وقد كفّرهم السلف وحذر منهم، وجاء في الأثر[٤] عن ابن عمر ﷺ قال: (لو أن لأحدهم مثل أُحد

---

(١) قال الإمام الأوزاعي–رحمه الله–: أول من قال بالقدر تعزى الى رجل نصراني من أهل العراق يقال له(سوسن) أخذها عنه معبد الجهني، وأخذها من معبد غيلان الدمشقي، ثم ان البدع والإنحرافات بدأت تجد من مرضى القلوب والإعتقاد آذان مصغية فحتماً وجدت أتباعاً وأنصاراً كمنوا على بدعتهم، وقد تصدى لهم من بقى من الصاحبة كأمثال عبد الله بن عباس وابن عمر–رضي الله عنهم– واخبروا انهم مجوس هذه الأمة. ينظر: القدر، أبو بكر جعفر بن محمد الحسن الفريابي، تحقيق: عبد الله المنصور، أضواء السلف، ط١، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م، ٢٠٦، والإبانة عن الشريعة الفرقة الناجية ومخالفة الفرق المذمومة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن حمدان ابن بطة الكعبري، تحقيق: عثمان الأثيوبي، دار الراية، السعودية، ط٢، ١٤١٨هـ:٢/٢٩٨.

(٢) ينظر لباب التأويل، الخازن: ٤/٢٢٣ .

(٣) صحيح مسلم: ١/٣٦.

(٤) الأثر: يطلق الأثر على كلام الصحابة–رضي الله عنهم– والحديث على قول النبي ﷺ وهو تفريق كما قال العلماء حسن ؛ لأن التفاوت في المراتب يقتضي التفاوت فيما يترتب على المراتب فيقال لما نسب لصاحب الشرع الخبر وللصحابة الأثر وللعلماء القول، ينظر: النكت على مقدمة ابن الصلاح، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: د. زين العابدين فريح، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٩٠هـ–١٩٨٩م، ١/٤١٧.

ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر)[١]، علماً أن النبي ﷺ وصفهم بأنهم مجوس هذه الأمة بدليل عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون بالأقدار، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال)[٢]. وتعليل مجوس هذه الأمة؛ لأن القدرية تقول: ما خلق الله شراً كما يقول المجوس وسماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ؛ وذلك ان من المجوس من يقول بالتثنية وبيان قولهم: (ان للعالم إلهان أحدهما يخلق الخير والأنوار والآخر يخلق الشر والظلمة، وإنهما اختلفا وتهادنا إلى وقت مخصوص معلوم يعبرون عنه يوم القيامة ويسمون بالمأنوية والثنوية نسبة إلى «ماني المجوسي»[٣] الذي كان زمان كسرى)[٤] وهم الذين عناهم المتنبي في شعره رداً على من انتحل مذهبهم بقوله:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر، رقم: ٨، ٣٦/١ .

(٢) سنن ابي داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم: ٤٦٩٢، ٢٢٢/٤ . وفي رواية ابن عمر –رضي الله عنهما– (القدرية مجوس هذه الأُمّة إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم) المستدرك على الصحيحين، الحاكم، كتاب الإيمان، من حديث مسعد، رقم ٢٨٦، ١٥٩/١، وقال عنه الإمام الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن سمع أبي حازم عن ابن عمر ولم يخرجاه، وينظر: لباب التأويل، الخازن، ٢٢٣/٤.

(٣) وقد كان رجلاً نقاشاً خفيف اليد ظهر في زمن سابور بن اردشير، وادعى النبوة وقال: ان للعالم أصلان نور وظلمة وكلاهما قديمان فقبل سابور قوله فلما انتهت نوبة الملك الى بهرام اخذ ماني وسلخه وحشا بجلده تبناً وعلقه وقتل أصحابه إلا من هرب والتحق بالصين، والثنوية ربع فرق منهم الريصانية يقولون ان النور حي والظلمة ميتة، والمرتونية وهم يتوسطون بين النور والظلمة، والمزدكية اتباع مزدك اتباع دين الإباحية، والمانوية هم يقولون ان النور والظلمة حيَّان. ينظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي: ٨٨ .

(٤) شرح العقيدة السفارينية، محمد صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٦٤ .

وكم لظلام الليل عندك من يـــد ** تحدث أن المأنـــوية تكـذب

وقاك ردى الأعداء تسري عليهم ** وزارك فيه ذو الدلال المحجب

فبائن من شعره ان الذين نسبوا الشر اليه كاذبون ليس الأمر على ما قالوا ثم بيّن تلك النعمة)[١].

ومحصلة هذا التوضيح لمقالة القدرية تبيِّن ان القدرية قسمان :

القسم الأول: القائلون بأن الامر أُنف، وهو مذهب الغلاة من القدرية الذي بينه الشيخ في تفسيره بقوله: (زعمت القدرية انه سبحانه وتعالى لم يقدرها أي: الحوادث لم يتقدم علمه بها، وانها مستأنفة العلم أي: إنما يعلمها سبحانه وتعالى بعد وقوعها، وكذبوا على الله ﷻ عن اقوالهم الباطلة علواً كبيراً وسميت هذه الفرقة قدرية، لأنكارهم القدر)[٢] علماً ان هذه الفرقة القائلة بهذه المقالة انقرضت، ولم يبقى أَحدٌ من أهل القبلة عليه وهذا ما أكده الشيخ الخازن في كتابه بخروجه بهذه المحصلة (قال أصحاب المقالات من المتكلمين[٣]: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ولم يبقى احدٌ من أهل القبلة عليه)[٤] .

القسم الثاني: ومحصلة المقالة وهي التي تعتقد (اثبات القدر ولكن يتميز بان الخير من الله والشر من غيره تعالى)[٥] وهو ما بينه الشيخ الخازن في تفسيره (وصارت

---

(١) شرح ديوان المتنبي، أبو البقاء بن الحسن الكعبري البغدادي، تحقيق: مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت: ١٧٨/١ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤ .

(٣) ومنهم الامام القرطبي – رحمه الله – فيما نقله ابن حجر ان مذهب الغلاة من القدرية قد انقرض وانه لا يعرف احد من زمانه ينسب اليه، ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩٤/١، وفتح الباري، ابن حجر: ١١٩/١ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤ .

(٥) لباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤ .

القدرية في الازمان المتأخرة تعتقد اثبات القدر، ولكن تقول الخير من الله، والشر من غيره ﷻ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً)[١].

وقد عاب على مقالتهم هذه الامام ابن قتيبة وامام الحرمين حسب ما حكاه عنهم الخازن في كتابه بقولهم (هذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهاتهم وتواقحهم، فان اهل الحق يفوضون امورهم إلى الله تعالى ويضيفون القدر والافعال إلى الله تعالى وهؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أَنفسهم ومدعي الشيء ومضيفه لنفسه ومضيفه إليها أَولّى بان ينسب إليه ممن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه)[٢].

ثانياً: المعتزلة:

فرقة من المتكلمين يخالفون اهل السنة في بعض معتقداتهم ورئيس هذا المذهب واصل بن عطاء الذي اعتزل بأصحابه حلقة الامام الحسن البصري رحمه الله وكان ظهورهم في نهاية القرن الهجري الاول في عهد بني أُمية، ويرجع اسم اعتزالهم، لما قال واصل مقالته في الفاسق، بأنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين منزلتين، وانضم إلى حلقته عمرو بن عبيد[٣] واعتزلا حلقة الامام الحسن البصري رحمه الله فسموا بالمعتزلة واصبح لهم اتباع كُثر[٤] لهذا المذهب الكلامي، فهم متفقون على نفي صفات الباري ﷻ، وعلى أن القرآن مخلوق محدث علماً انهم مجمعون على (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

(١) لباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤.

(٢) غريب الحديث، ابن قتيبة :٢٥٥/١، وينظر الارشاد، الجويني: ٢٥٦، ولباب التأويل، الخازن: ٢٢٣/٤.

(٣) هو عمرو بن عبيد أبو عثمان البصري كبير المعتزلة وأولهم وقال ابن المبارك عنه: دعا الى القدر فتركوه، وقال عنه النسائي ليس بثقة، ومات سنة ١٤٤هـ، ينظر: سير اعلام النبلاء، الذهبي: ١٠٤/٦-١٠٥.

(٤) منهم الجبائي وأبو الهذيل والاسكافي والقاضي عبد الجبار، ينظر مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، الاشعري: ١٣١/١ .

شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[١]، ليس بجسم ولا شبح، ولا جثة ولا لحماً ولا دماً ولا شخصاً، ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ولا بذي الحرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ... ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حديثهم ولا يوصف بأنه متناهٍ وليس بمحدود ولا مولّدٌ ولا تحيط به الاقدار ولا تحجبه الاشارة ولا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس ولا يشبهه الخلق بوجه من الوجوه وانه القديم وحده ولا قديم غيره)[٢].

هذا مذهبهم وشرحهم التوحيد، علماً أن المعتزلة يجعلون العدل أصلاً من أُصولهم[٣]، ويقولون ليس العدالة ان يكلف الله تعالى المرء ما لا يطاق، او أن يسال عما يفعل، وعلى هذه القاعدة اتفقت كلمتهم على أن العبد خالق لأفعاله خيرها وشرها ويستحق على فعله الثواب والعقاب في الآخرة.

ودليلهم (أن افعال العباد غير مخلوقة فيهم وأنهم محدثون لها)[٤] وبهذا نعتهم كثيرٌ من اهل العلم بالقدرية الا إن القدرية ينفون تلك الصلة بدليل (اعلم ان القدرية عندنا هم المجبرة والمشبهة وعندهم المعتزلة ترميهم بهذا اللقب وهم يرموننا به)[٥].

---

(١) سورة الشورى: ١١ .

(٢) مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، الاشعري: ١/١٣٠-١٣١ .

(٣) ومن المعروف أن الاصول التي يجتمع حولها سائر المعتزلة، والتي لا يوصف المتكلم بأنه معتزلاً الا اذا قال بها واعتنقها، وآمن بها ودافع عنها، هي الخمسة وهي، التوحيد، والعدل، والوعيد والوعيد، والمنزلة بين المنزلين، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي التي ذكرها القاضي عبد الجبار في كتابه، شرح الاصول الخمسة، القاضي عبد الجبار بن احمد، تعليق احمد بن الحسين، تحقيق: د. عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبه، القاهرة، ط٣، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م: ٦ .

(٤) شرح الاصول الخمسة، القاضي عبد الجبار: ٣٢٣ .

(٥) شرح الاصول الخمسة، القاضي عبد الجبار: ٩٣، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٤/٢٢٣ .

علماً انا وجدنا الشيخ الخازن رحمه الله إنه جعل القدرية والمعتزلة في موضع اتهام واحد، كونهم تكلموا بالقدر بغير علم وأن علمهم لم يوصلهم إلى الحقيقة، فهم وقفوا في مسألة ليس لهم بها علم والله منع ذلك في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[١]، او لوجود صلة فيما بينهم والتقاءهم في نفي قسم من الاشياء التي خلق الله ﷻ ونسبها إلى غيره سبحانه وهو ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾[٢]، فدعوة القدرية تنسب خلق الشر إلى غيره سبحانه، والمعتزلة تدعي بأن العبد هو خالق للأفعال فوقعوا في متاهات الضلال فعلى ذلك جمعهم الخازن في الرد عليهم سويةً في كتابه[٣].

المطلب الثالث

استدلالات القدرية والمعتزلة والرد عليهم

ذكر الشيخ الخازن رحمه الله استدلالات القدرية والمعتزلة الدالة على مذهبهم الذي بيناه سلفاً، وقام الشيخ بالرد عليهم بما يوافقها كل حسب موضعه وكانت كالآتي:

أ. ما جاء من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾[٤] وهذه الآية الكريمة دليلٌ على إن الخير والشر بإرادة الله ﷻ وهذا ما بينه الشيخ الخازن بدليل قوله: (وفي الآية دليلٌ على إن الخير والشر بإرادة الله ﷻ وفيه ردٌ على القدرية والمعتزلة، ولهم عذابٌ عظيم: يعني في الآخرة، أما الذين اشتروا الكفر بالإيمان يعني المنافقين ءامنوا ثم كفروا والمعنى: أنهم

(١) سورة الاسراء: ٣٦ .

(٢) سورة الانعام: ٢ .

(٣) ينظر لباب التأويل، الخازن: ٣٢٣/١، ١٤٥/٢-١٤٧، ١٤٩/٣ .

(٤) سورة آل عمران: ١٧٥-١٧٦ .

استبدلوا الكفر بالإيمان، فكأنهم اعطوا الإيمان وأخذوا الكفر كما يفعل المشتري من اعطاء شيئاً وأخذ غيره بدلاً عنه ولن يضروا الله شيئاً يعني: استبدالهم الكفر بالإيمان وانما ضروا أنفسهم بذلك ولهم عذابٌ أليم يعني: في الآخرة)[١].

ب. تناول الشيخ من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٢]، فذكر قول ابن الانباري[٣] رحمه الله لبيانه لهذه الآية الكريمة بقوله: (وقال ابن الانباري: قال: جماعة [٤] من أهل العلم أنزل الله ﷻ هذه الآية في قوم يعاندون الحق سبق في علمه أنهم لا يؤمنون فقال: إنما نملي لهم ليزدادوا اثماً: بمعاندتهم الحق وخلافهم الرسول ﷺ وقد قال ﷺ «إذا رأيت الله يعطي على المعاصي فإن ذلك استدراج من الله لخلقه»[٥])[٦]، واستدرك الشيخ الخازن بقول الزجاج عند شرحه لهذه الآية (هؤلاء قوم اعلم الله نبيه ﷺ أنهم لا يؤمنون ابداً، وأن نفاقهم يزيدهم كفراً واثماً)[٧]، ثم قال بعد هذا الاستدراك: (وهذه الآية حجة ظاهرةٌ

---

(١) لباب التأويل، الخازن: ٣٢٣/١ .

(٢) سورة آل عمران: ١٧٨ .

(٣) هو أبو البركات عبد الرحمن بن ابي الوفاء محمد بن عبيد الله بن محمد بن ابي سعيد محمد بن الحسن بن سليمان الانباري، الملقب كمال الدين النحوي كان من الأئمة المشار إليهم في علم النحو سكن بغداد في صباه الى ان مات وتفقه على المذهب الشافعي صنف في النحو كتاب (اسرار العربية) وله كتاب (الميزان)، توفي ٥٧٧هـ في بغداد، ينظر وفيات الاعيان، ابن خلكان: ١٣٩/٣ .

(٤) وهو قول سفيان الثوري وابي اسحاق وكعب – رحمهم الله –، ينظر: تفسير القرآن الكريم، ابن كثير: ٢٢٤/٣، وتفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا: ٣١١/٧، وتفسير المراعي، احمد بن مصطفى المراعي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر: ط١، ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م: ١١٠/٧ .

(٥) مسند الامام احمد، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني، رقم: ١٧٣١١، ٥٨٧/٢٨، قال عنه محققوه حديث حسن، وهذا اسناد ضعيف لضعف جبرين بن سعد وباقي رجال الاسناد ثقات .

(٦) لباب التأويل، الخازن: ٣٢٤/١ .

(٧) المصدر السابق نفسه .

على القدرية حيث أخبر الله تعالى أنه يبطل اعمال قوم ويمهلهم ليزدادوا كفراً واثماً وغياً)[١].

ت. استدل القدرية حسب ما عرضه الشيخ الخازن – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٢] (قد تعلق بظاهر هذه الآية القدرية وقالوا: نفى الله السيئة عن نفسه ونسبها إلى الانسان بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٣])[٤] فقد رد عليهم الخازن رحمه الله في هذه المقالة التي تعلقوا بها بأنها باطلة بدليل قوله: (ولا متعلق لهم بها، لأنه ليس المراد من الآية حسنة الكسب من الطاعات، ولا السيئة المكتسبة من فعل المعاصي بل المراد من الحسنة والسيئة في هذه الآية ما يصيب الانسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعل العبد، لان لا يقال في الطاعة والمعصية اصابني وانما يقال: اصبتها. ويقال: في النعم والمحن اصابني بدليل أنه لم يذكر عليه ثواباً ولا عقاباً وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[٥]، ولما ذكر الله حسنات الكسب وسيئاته وعد عليها بالثواب والعقاب بدليل قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[٦] فبطل بهذا قول القدرية)[٧] ثم عقب رحمه الله إضافات مفيدة لكي يبين بما في هذه المسألة بقوله: (فإن قلت كيف وجه الجمع بين

---

(١) لباب التأويل، الخازن: ٣٢٤/١.

(٢) سورة النساء: ٧٩ .

(٣) سورة النساء: ٧٩ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٤٠١/١ .

(٥) سورة الاعراف: ١٣١ .

(٦) سورة الانعام: ١٦٠ .

(٧) لباب التأويل، الخازن: ٤٠١/١ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾(١)، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾(٢)، علماً أنه اضاف السيئة إلى فعل العبد في هذه الآية)(٣) وبيان الشيخ الخازن رحمه الله لهذه المسألة أن كل شيء قد خلقه الله وهو موجده حتى السيئة، وإضافة السيئة إلى فعل العبد مجاز بقوله: (قلت أما إضافة الاشياء كلها إلى الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾(٤)، فعلى الحقيقة، لأن الله تعالى وهو خالقها وموجدها، وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد فعلى المجاز تقديره: وما أصابك من سيئة فمن الله بذنب نفسك عقوبة لك، وقيل السيئة إلى فعل العبد على سبيل الأدب فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٥)، فأضاف المرض إلى نفسه على طريق الأدب ولا يشك عاقل أن المرض هو الله تعالى)(٦).

واستدرك الشيخ قول ابن الانباري – رحمه الله – ليبين أن الفعلان من الله ﷻ بقوله: (وقال ابن الانباري في معنى الآية ما أصابك الله به من حسنة وما أصابك به من سيئة فالفعلان راجعان إلى الله تعالى)(٧).

ث. وجاء في تفسيره من سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾(٨)، قال ابن عباس ﷺ: (معناه ان يخلص نياتهم، وقيل معناه: لم يرد

(١) سورة النساء: ٧٨ .
(٢) سورة النساء: ٧٩ .
(٣) لباب التأويل، الخازن: ٤٠١/١ .
(٤) سورة النساء: ٧٨ .
(٥) سورة الشعراء: ٨٠ .
(٦) لباب التأويل، الخازن: ٤٠١/١ .
(٧) لباب التأويل، الخازن: ٤٠١/١ .
(٨) سورة المائدة: ٤١ .

الله ان يهديهم. وفي هذه الآية دلالة على أن الله تعالى لم يرد إسلام الكافر وانه لم يطهر قلبه من الشك والشرك ولو فعل ذلك لآمن)[١].

وبعد ذكر قول ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسيره هذه الآية تناولها الشيخ الخازن بأنها من أشد الاستدلالات الموجه ضد القدرية ومذهبهم الباطل بقوله: (وهذه الآية من أشد الآيات على القدرية: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾[٢]، يعني: المنافقين واليهود، فأما خزي المنافقين بالفضيحة وهتك ستارهم، لإظهار نفاقهم وكفرهم، وأما خزي اليهود بأخذ الجزية والقتل والسبي والاجلاء من أرض الحجاز إلى غيرها ولهم عذاب في الآخرة يعني: الخلود في النار المنافقين واليهود)[٣] .

ج. ومن الردود التي ذكرها الشيخ الخازن في تفسير عند تناوله سورة الانعام قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤] ومعنى الآية (كما زَّينا لهؤلاء المشركين عبادة الاصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان، كذلك زينا لكل أُمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية)[٥].

ثم استدل بهذه الآية الكريمة بالرد على القدرية والمعتزلة المعتقدين لمذهبهم الفاسد في القدر، بأن الله لا يحسن عليه خلق الكفر وتزينه للعباد ودليل قوله ما جاء في تفسيره بقوله (وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا: لا يحسن من الله خلق الكفر وتزينه)[٦].

---

(١) لباب التأويل، الخازن: ١٤٥/٢ .

(٢) سورة البقرة: ١١٤ .

(٣) لباب التأويل، الخازن: ١٤٥/٢ .

(٤) سورة الانعام: ١٠٨ .

(٥) لباب التأويل، الخازن: ١٤٥/٢ .

(٦) المصدر السابق نفسه .

ثم فسر تكملة الآية بأن مرجعهم جميعاً إلى الله ﷻ (يعني المؤمن والكافر والطائع والعاصي فينبئهم بما كانوا يعملون، يعني في الدنيا ويجازيهم على ذلك)[١].

ح. وجاء في سورة الانعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[٢] والمعنى حسب ما ذكر الشيخ في كتابه وهو ما بيِّن بأن المشيئة راجعةٌ إلى الله ﷻ بقوله: (وحشرنا عليهم كل شيء: مواجهة ومعاينة ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله: اخبر الله ان الايمان بمشيئة الله تعالى لا كما ظنوا أنهم متى شاءوا ءامنوا ومتى شاءوا لم يؤمنوا، وقال ابن عباس–رضي الله عنهما–: ما كانوا ليؤمنوا هم: أهل الشقاء الا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أنهم يدخلون في الايمان)[٣].

وهذا دليل مذهب أهل السنة وردهم على القدرية والمعتزلة حسب ما أكده الشيخ الخازن–رحمه الله– بأن الاشياء خيرها وشرها كلها بيد الله–عز وجل– رداً على قول المعتزلة والقدرية لهذه المسألة ومحصلة قوله: (ولكن أكثرهم يجهلون: يعني يجهلون ذلك، ويحسبون أن الايمان إليهم متى شاءوا آمنوا، ومتى شاءوا كفروا، وليس الامر كذلك بل الايمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفي هذا دليلٌ بمذهب أهل السنة، أن الاشياء كلها بمشيئة الله–عز وجل– ورد على القدرية والمعتزلة في قولهم: إن الله اراد الايمان من جميع الكفار)[٤].

---

(١) لباب التأويل، الخازن: ١٤٦/٢ .

(٢) سورة الانعام: ١١١ .

(٣) لباب التأويل، الخازن: ١٤٧/٢ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

و- ومن الحجج الظاهرة على مذهب القدرية الباطل في القدر ما ذكره الشيخ في تفسيره لسورة الاعراف بقوله تعالى على لسان موسى-عليه السلام-: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾[١]، نقلاً عن اهل العلم بقوله: (قال الواحدي: هذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر (أنت ولينا) يعني: أنت يا رب ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر أي: لا ولي لنا ولا ناصر ولا حافظ إلا انت)[٢].

ي- وذكر الشيخ الخازن -رحمه الله- في تفسيره لسورة الحجر وكان من جملة تفسيره عند وصوله لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾[٣].

فأتى بمعنى السلوك ليرد على هذا المذهب الباطل بقوله: (السلوك: النفاذ في الطريق، والدخول فيه، والسلك إدخال الشيء بالشيء، كإدخال الخيط بالمخيط، ومعنى الآية كما اسلكنا الكفر والتكفير والاستهزاء في قلوب شيع الاولين، كذلك نسلكه أي: ندخله في قلوب المجرمين)[٤].

---

(١) سورة الاعراف: ١٥٥ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٢٥٥/٢، وينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز علي بن احمد الواحدي أبو الحسن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق- بيروت، ١٤١٥هـ، ٤١٥/١.

(٣) سورة الحجر: ٤، ١١، ١٢ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٤٩/٣ .

وكان وجه الاستدلال لهذه الآية الكريمة هو بأن أثبت القدر خيره وشره إلى الله عز وجل وبذلك رد على المعتزلة والقدرية وابطال مذهبهم من خلال سياقه لبيان معنى هذه الآية بقولة: (وفيه ردٌ على القدرية والمعتزلة وهي أبين أيه في ثبوت القدر لمن أذعن بالحق ولم يعاند، وان الله سبحانه وتعالى أضاف إلى نفسه إدخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منهم، فمن آمن بالقران فليستحسنه)[١].

وساق في كلامه هذا قولاً آخر للأمام الرازي –رحمه الله– في بيان اشكالاً ادعاء المعتزلة وسياق القول حسب ما نقله الشيخ الخازن –رحمه الله– في تفسيره عن الامام الرازي –رحمه الله–: (احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل والضلال في قلوب الكفار فقالوا قوله كذلك نسلكه أي: كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين)[٢].

ثم بيّن قول المعتزلة وأبداء كلامهم بأن الله تعالى لم يجري الضلال والكفر لعباده بقوله: (وقالت المعتزلة لم يجري للضلال والكفر وذكر فيما قيل هذا اللفظ فلا يمكن ان يكون الضمير عائداً إليه)[٣]، وأجيب عن هذا الاشكال بما ادعاه المعتزلة بأن (الله ﷻ قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٤] فالضمير في قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائداً إليه، والاستهزاء بالأنبياء كفرٌ وضلال، فثبت صحة قولنا إن المراد من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنه الكفر والضلال)[٥].

---

(١) لباب التأويل، الخازن: ٣/٤٩ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٣/٤٩، وينظر مفاتيح الغيب، الرازي: ١٩ / ١٢٥ .

(٣) لباب التأويل، الخازن: ٣/٥٠، وينظر: مفاتيح الغيب، الرازي: ١٩/١٢٥ .

(٤) سورة ياسين: ٣٠ .

(٥) لباب التأويل، الخازن: ٣/٥٠ .

والمحصلة من اقوال اهل العلم فيما عرضه الشيخ الخازن –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآيات التي وردت في ثنايا هذا المبحث التي جاءت ترد على مذهب المعتزلة والقدرية الباطل، والباحث يؤيد ما ذهب إليه الشيخ الخازن –رحمه الله– في إبطال هذا المذهب، علاوة على ذلك ان الرسول ﷺ قد حكم على هذه المسألة والصحابة ﷺ من بعده، ولهذا جعل الايمان بالقضاء والقدر اصلاً من اصول الايمان بدليل قوله ﷺ عندما سأله جبريل–عليه السلام – عن الايمان حتى وصل اليه (وإن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله)[١].

ومن الجدير بالذكر ان الرسول ﷺ نبَّه عن هؤلاء وقبل ظهورهم واعتناقهم إلى ذلك المذهب ووصف مذهبهم بالاعتقاد المجوسي بمعنى ان القدرية مجوس هذه الامة؛ لتقسيمهم الخير والشر علماً انهم خصماء الله تعالى يوم القيامة بدليل رواية ابن عمر– رضي الله عنهما– عن الرسول ﷺ قال: (القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم)[٢] والله اعلم.

المطلب الرابع

موقف أهل السنة من القضاء والقدر

بعد أن بيَّنا موقف اهل العلم على ما استخرجناه من تفسير الخازن –رحمه الله– من ثمرات هذه الجهود العظيمة لأهل السنة وتصديهم إلى تلك المذاهب الضالة في هذه المسألة، آن للباحث ان يذكر موقف اهل السنة من مسألة القضاء والقدر التي تنازع فيها كثير من الناس.

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله: رقم ٨، ٣٦/١.

(٢) سنن ابي داود، كتاب السنة، باب في القدر: ٢٢٢/٤ .

بقى اهل السنة على موقفهم الثابت في انكار ما تدعيه الفرق الضالة الاخرى الزائفة، وبرز للتصدي على اقوالهم الاشاعرة الذين أُسس منهجهم الكلامي أبو الحسن الاشعري –رحمه الله– علماً انه أقام على مذهب الاعتزال مدة اربعين سنة، وبعد هذه الفترة غاب عن الناس كما تقول الروايات خمسة عشر يوماً، فأعرض عن طريق الاعتزال، وتاب منه ووافق أئمة السلف فأقام مذهبه الكلامي على أساس التوسط في مسألة القضاء والقدر بين اهل الجبر والاعتزال.

علاوة على ذلك سار على منهجه كثيرٌ من اهل الفقه، والحديث من اهل السنة والجماعة، فكان منهم الامام الرازي والجويني والباقلاني وغيرهم من اهل العلم الكبار – رحمه الله–[١].

فقد نقل الشيخ استدلالات لأهل السنة واثباتهم مسألة القضاء والقدر وانها راجعة إلى الله عز وجل. وان الله عالماً من كل نفس ما هي صانعة والى اين مصيرها ويعلم عاقيه من هو على التقوى ، الطائع المخلص إلى الله، ومن هو العاصي ولا يرضى منه الايمان فاستدلوا بآيات من القرآن الكريم تدل على ايمانهم واعتقادهم بهذا، فساق الشيخ الخازن –رحمه الله– في تفسيره هذه الاستدلالات يبيَّن مفاد مذهبهم الاعتقادي في هذه المسألة منها:

أ– ما جاء من سورة النجم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[٢] فقال في

(١) ينظر تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، شمس الدين أبو عبد الله بن احمد الذهبي، تحقيق: عمر التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م: ١٢٧/٢٣، وتاريخ الفلسفة في الاسلام دي بور، ترجمة: أبو ريده، ط٤، ١٩٥٧م: ١٧٧– ١٧٨، وأبو الحسن الاشعري، حماد بن محمد الخزرجي الانصاري، الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة، ط٦، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م، ٦٠ – ٦١.

(٢) سورة النجم: ٣٢ .

تفسيره عن لسان اهل السنة[١] ومفاده (علم الله من كل نفساً ما هي صانعةٌ والى ماهي صايرة، فلا تزكوا انفسكم فلا تبرؤها من الآثام ولا تمدحوهم بحسن الاعمال فقال: هو اعلم بكم ايها المؤمنون علم حالكم من اول خلقكم إلى آخر يومكم فلا تزكوا انفسكم رياء وخيلاء، فان العلم عند الله ، وفيه اشارة إلى وجوب خوف العاقبة، فإن الله تعالى يعلم عاقبة من هو على التقوى وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[٢]، يعني: بمن بر وأطاع واخلص العمل)[٣].

ب- ونقل الخازن -رحمه الله- مذهب اهل السنة عند وصوله لسورة الرعد قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٤] ثم ذكر حديثاً لرسول ﷺ: (إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ)[٥].

---

(١) وعلى رأسهم الحسن، ومقاتل، والطبري وغيرهم . ينظر: تفسير مقاتل: ٢١٦٥/٤ وجامع البيان، الطبري: ٢٢ /٥٣٩-٥٤٠، ولباب التأويل، الخازن :٢١٢/٤ .

(٢) سورة النجم: ٣٢ .

(٣) لباب التأويل، الخازن: ٢١٢/٤ .

(٤) سورة الرعد: ٣٩ .

(٥) صحيح مسلم، كتاب القدر ; باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، كتابة رزقه واجله وعمله، وشقاوته وسعادته، رقم الحديث (٢٦٤٣)، ٢٠٣٦/٤، وينظر: لباب التأويل، الخازن: ٢٣/٣ .

ثم عقب الشيخ الخازن –رحمه الله– في تفسيره: (ان الله يمحوا ما يشاء لا اعتراض لأحد عليه بفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وان مذهب اهل السنة ان المقادير سابقة وقد جف القلم[١] لما كائن إلى يوم القيامة وفبيّن اعتراضاً في هذه المسألة بقوله: (فكيف يستقيم مع هذا المحو والاثبات ؟ قلت: المحو والاثبات معاً جف به القلم، وسبق به القدر فلا يمحو شيئاً ولا يثبت شيئاً إلا ما سبق به علمه في الازل وعليه يترتب القضاء والقدر)[٢].

ت– ومن الاستدلالات التي ذكرها الشيخ الخازن –رحمه الله– قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾[٣]، فعرض مسألة هل أن (المستعاذ منه هل هو بقضاء الله وقدره فذلك قدحاً في القدرة)[٤]، فأجاب عن هذا الأشكال بقوله: (قلت كل ما وقع في الوجود هو بقضاء الله تعالى وقدره والاستشفاء والرقية من قضاء الله وقدره يدل على صحة ذلك، وما روى الترمذي عن ابن ابي خزامة عن ابيه (قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أريت رُقاً نسترقي بها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً، قال هي من قدر الله تعالى)[٥].

---

(١) وهو الحديث المروي عن ابي هريرة –رضي الله عنه– قال: (قلت يا رسول الله: انا رجل شاب وانا اخاف العنت، ولا اجد به ما اتزوج النساء، فسكت عني ثم قلت مثل ذلك فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فقال النبي ﷺ يا ابا هريرة جف القلم بما انت لاقٍ فاختصي على ذلك او ذر) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب يكره من التبتل والخصاء، رقم ٥٠٧٦، ٤/٧.

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٢٤/٣ .

(٣) سورة الفلق: ١ – ٢ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٥٠٠/٤ .

(٥) سنن الترمذي، ابواب الطب، باب ما جاء في الرقي والادوية, رقم ٢٠٦٥، ٣٩٩/٤، وقال عنه الامام الترمذي: هذا حديث حسن، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٥٠٠/٤ .

ثم قال (وعن عمر ﷺ قال: نفر من قدر الله إلى قدر الله تعالى)[١][٢] وهناك كلام فيه فائدة عند تفسيره لسورة الفلق ومفادهُ: (خلق الله تعالى لشر ما خلق، ولشر غاسق، ولشر النفاثات، ولشر حاسد ؛ لأن لو كان هذا الشر كله خلقاً لمن اضافه إليه من الغاسق، والنفاثات والحاسد، مخترعاً لا كسباً، ولم يكن لأمر الله تعالى لنبيه ﷺ ولعباده التعوذ به من شر ذلك كله معنى، وانما يصح التعوذ به عز وجل مما هو قادراً عليه دون من أضافه إليه، فتعبدنا تعالى بسؤاله ودفع شر خلقه عنا ؛ لأنه اذا كان قادراً على فعل ما أضافه إلى من ذكر في السورة كان قادراً على فعل ضده، وتعبدنا بسؤاله تعالى فعل ضد ما أمرنا بالإستعاذة منه، فبان ان الخير والشر بهذا النص خلق الله تعالى)[٣].

ومحصلة ذلك ان الباحث يؤيد ما ذهب إليه اهل العلم من اهل السنة ومنهم الشيخ الخازن –رحمه الله– وهو بأن الله عز وجل خالق كل شيء وكلاً محكوماً بخلقه وايجاده قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾[٤] فذكر (أشياء من عجائب صنعه ؛ ليستدلوا بذلك على توحيده، ويعلموا على انه قادر على ايجاد العالم وفناءه بعد ايجاده وإيجاده مرة أخرى للبعث والحساب)[٥].

---

(١) متفق عليه صحيح البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر فيه الطاعون، رقم ٥٧٢٩، ١٣٠/٧، صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب الطاعون والطب والكهانة ونحوها، رقم ٢٢١٩، ١٤٧٠/٤، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٥٠٠/٤ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٤/ ٥٠٠ .

(٣) شرح صحيح البخاري ، ابن بطال: ٣٢٢/١٠ .

(٤) سورة النبأ: ٤ – ٨ .

(٥) لباب التأويل، الخازن: ٣٨٦/٤ .

وان هذه الاستدلالات دالة على ان الخير والشر هو من خلق الله تعالى وهو مذهب أهل السنة –رحمهم الله– بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[٢] وقول النبي ﷺ (أعملوا فكل ميسر لما خُلق)[٣] كلها تدل على ان سبحانه وتعالى خالق الاشياء واسبابها ومقدرها للعباد والله اعلم.

(١) سورة القمر: ٤٩ .

(٢) سورة الفلق: ١–٢ .

(٣) صحيح البخاري، كتاب القدر، باب وكان امر الله قدرا مقدورا: رقم ٦٦٠٥، ١٢٣/٨ .

المبحث الثالث:

مسألة الكسب ومفهومها

تبنى الاشاعرة الدفاع عن بيضة هذا الدين، والتصدي للمذاهب الكلامية الفاسدة، ومنهم تصديهم للقدرية والمعتزلة بقولهم في مسألة القضاء والقدر، فقد سلك الاشاعرة في هذه المسألة طريقاً وسطاً بين كون الانسان مجبور في أفعاله ام كونه مختاراً لها (فأن فعل العبد فعل له على الحقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله، ليس هو فعل الله تعالى ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق، وبهذا كانت افعال العباد خلق الله، وكسب من العباد، فأثبت للعباد فعلاً وكسباً، وأضاف الخلق إلى الله تعالى)[١]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[٢]، فبين الشيخ الخازن –رحمه الله– هذه القضية أي: معنى (الكسب) (ما كسبت من خيراً او شراً فهو مجزي به يوم القيامة)[٣].

وجاء معنى الكسب في موضع آخر كما ذكره صاحب شرح العقيدة الطحاوية بقوله (الكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفعاً او ضراً)[٤]، فقد بيّن الشيخ الخازن –رحمه الله– في ثنايا تفسيره اقوالاً لأهل العلم مبيناً لهذه القضية من خلال شرحه لكتاب الله عز وجل.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ابن ابي العز محمد بن علاء الدين، الحنفي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ –١٩٩٧م: ٦٥٢/٢ .

(٢) سورة آل عمران: ١٦١ .

(٣) لباب التأويل، الخازن: ٣١٣/١ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ابن ابي العز: ٦٥٢/٢ .

المطلب الاول:

القرآن الكريم

أ- ما جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١] بيّن بأن الله عز وجل خالق جميع الاشياء وانتم تعلمون بعقولكم بأنه هو خالقها وان العبد ليس له الا الكسب فيها قال الشيخ في تفسيره معقب على هذه الآية الكريمة (فلا تجعلوا لله انداداً، يعني: انكم بعقولكم تعلمون أن هذه الاشياء والامثال لا يصح جعلها انداداً لله، وانه واحدٌ خالق لجميع الاشياء وانه لا مثيل له ولا ضد له)[٢].

ب- وجاء في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٣]، فذكر الشيخ ان جميع ملاذ الدنيا هي خلق الله تعالى ودليل قوله ما جاء في تفسيره -رحمه الله- (قال اهل السنة: المُزين هو الله تعالى بأنه تعالى خالق لجميع أفعال العباد، ولأن الله تعالى خلق جميع ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده، وإباحتها للعبد تزيناً لها قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٤]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[٦].

---

(١) سورة البقرة: ٢٢ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٣١/١ .

(٣) سورة آل عمران: ١٤ .

(٤) سورة البقرة: ٢٩ .

(٥) سورة الاعراف: ٣٢ .

(٦) سورة الكهف: ٧ .

وكل ذلك يدل على إن المزين هو الله تعالى ومما يؤيد ذلك قراءة مجاهد[١] بفتح الزاي على تسمية الفاعل)[٢].

وأورد الشيخ الخازن –رحمه الله– اعتراضاً ذكره عند سياق تفسيره لهذه الآية الكريمة وهو بأن طائفة من المعتزلة تقول: بأن المُزين هو الشيطان ومفاد قولهم كما ذكره الخازن (ان المُزين هو الشيطان وهو قول طائفة من المعتزلة ويدل على ذلك إن الله تعالى زهد في هذه الاشياء بأن أعلم عباده زوالها، ولأن الله تعالى أطلق حب الشهوات فيدخل فيه الشهوات المحرمة، والمُزين لذلك هو الشيطان، ولأن الله تعالى ذكر هذه الاشياء في معرض الذم للدنيا ويدل عليه آخر الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[٣]، ونقل عن ابي علي الجبائي من المعتزلة ان كل ما كان حزاماً مان المُزين هو الشيطان، وكل ما كان مباحاً كان المُزين هو الله تعالى)[٤].

وقد رد الشيخ الخازن على هذا الاشكال بقوله: (والصحيح ما ذهب إليه اهل السنة؛ لان الله تعالى خالق كل شيء ولا شريك له في ملكه)[٥].

---

(١) زَيَن للناس: بفتح الزاي والياء قراءة مجاهد، وقال أبو الفتح على هذه القراءة فاعل هذا الفعل ابليس . وقراءة الجماعة (زُين) بالضم مبنياً للمفعول، ينظر: المحتسب في تبين وجوه القراءات والايضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الاوقاف، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م: ١/١٥٥، ولباب التأويل، الخازن: ١/٢٣٠ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ١/٢٣٠ .

(٣) سورة آل عمران: ١٤ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ١/٢٣٠ .

(٥) لباب التأويل، الخازن: ١/٢٣٠، وينظر: الانتصار للقرآن، محمد بن الطيب بن محمد القاضي أبو بكر الباقلاني، تحقيق: ومحمد القاضي ، دار الفتح، عمان، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م: ٢/٦٩١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١/٢٦١ .

وأجوبة اهل السنة على هذه الآيات ونظائرها مثلاً: قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[٢]، فمحصلته (فتأويل هذا التزيين إنه ليس من تزيين الكافرين والشياطين من سبيل، وانه ليس هو الدعوة إلى ذلك والترغيب فيه، وفي الناس من يحمل ذلك على انه انما أراد بالتزيين خلق الشهوة وما جعل في الطباع من الميل والطوق إلى ذلك، وليس معناه الترغيب فيه والدعاء إليه، فبطل توهم من ظن ان معنى زَيَّنّا اننا أمرنا بذلك ودعونا إليه ورغبنا به)[٣].

ت- وجاء في تفسير لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٤]، قال الشيخ في معنى هذه الآية (فإنما يقول له كن فيكون أي: اذا أحكم امراً وحتمه، فإنما يقول له كن فيكون ذلك الامر على ما أراد الله تعالى وجوده، فإن قلت: المعدوم لا يخاطب فكيف قال: فإنما يقول له كن فيكون ؟ قلت: ان الله تعالى عالم بما هو كائن قبل تكوينه واذا كان كذلك كانت الاشياء التي لم تكن كأنها كائنة لعلمه بها فجاز ان يقول لها: كوني ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود و(اللام) في قوله (له) لام الأجل فيكون المعنى: اذا قضى أمراً فيقول: لأجل تكوينه وإرادته له كن فيكون)[٥] وذكر ابن حجر -رحمه الله- في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٦]، بقوله: (اراد ان يبين ان جميع مخلوقات الله المكونات بأمره بكلمة كن من حيوان او عرض او حركات العباد واختلاف

---

(١) سورة النمل: ٤ .

(٢) سورة آل عمران: ١٤ .

(٣) الانتصار للقرآن، الباقلاني: ٦٩١/٢ .

(٤) سورة البقرة: ١١٧ .

(٥) لباب التأويل، الخازن: ٧٤/١ .

(٦) سورة الاحزاب: ٣٨ .

إرادتهم واعمالهم بمعاصي او طاعات كل مقدر بالأزمان والاوقات لا زيادة في شيء منها ولا نقصان عنها ولا تأخير لشيء منها عن وقته ولا يقدم قبل وقته)[١].

المطلب الثاني:

الاستدلال بالاحاديث النبوية الشريفة

إن اساليب استدلالات الشيخ الخازن –رحمه الله– في مسألة ما فأنه يعرض استدلالاته من القرآن الكريم ويعضدها بالسنة النبوية الشريفة، ولكان لهذه القضية في مسألة الكسب استدلالاته النبوية وكانت كالاتي:

أ– فعند عرضه لسورة البقرة بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[٢]، ساق حديثاً لرسول ﷺ المروي عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– بقوله: (سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله قال: ان تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ان ذلك لعظيم. قلت ثم أي: قال ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك، قلت ثم أي: قال ان تزني بحليلة جارك)[٣] فبين وجه الدلالة في هذا الحديث بقوله: (اثبات الافعال كلها لله تعالى سواء كانت من المخلوقين خيراً او شراً، فهي لله عز وجل خلقاً وللعباد كسب ولا ينسب شيئاً من الخلق لغير الله تعالى. فيكون شريكاً وندا ومساوياً له في نسبة الفعل اليه، ونبه الله عباده على ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]، انه الخالق لكم ولأفعالكم وارزاقكم، رداً على من زعم من القدرية انه يخلق افعاله، فمن علم ان الله تعالى خلق

---

(١) فتح الباري، ابن حجر: ٤٩١/١٣ .

(٢) سورة البقرة: ٢٢ .

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ رقم ٤٤٧٧، ١٨/٦، وصحيح مسلم، كتاب الايمان باب كون الشرك اقبح الذنوب وبيان اعظمها بعده، رقم ٨٦، ٩٠/١، علماً اني لم اجد عبد الله بن مسعود عن الشيخين، ولكني وجدته عن الشيخ الخازن –رحمه الله– واثبته . ينظر لباب التأويل، الخازن: ٣٦٧/١ .

(٤) سورة البقرة: ٢٢ .

كل شيء فقدره تقديراً فلا ينسب شيئاً من الخلق إلى غيره، فلهذا ذكر هذه الآيات[١] في نفي الانداد والالهة المدّعوة معه فمنها حذر به المؤمنين، ومنها ما وبخ به الكافرين الضالين، ثم أثنى على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[٢] يريد كما يدعوه عبدة الاوثان لترزقهم وتعافيهم وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً)[٣].

ب- بيّن الخازن -رحمه الله- عند تفسيره لسورة الروم قوله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾[٤]، حديثاً لرسول ﷺ المروي عن ابي هريرة -رضي الله عنه- (ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)[٥].

ووجه الاستدلال للشيخ بهذا الحديث على قضية الكسب بقوله: (ولكن لا اعتبار للأيمان الفطري في أحكام الدنيا، وانما يعتبر الايمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل الا ترى إلى قوله ﷺ «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، فهو مع وجود الايمان الفطري، فأنه محكوم له بحكم ابويه الكافرين وهذا معنى قول النبي ﷺ في

---

(١) ومن هذه الآيات قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، البقرة: ١٦٥، وقوله عز وجل: ﴿وَنَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، سورة فصلت: ٩، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، سورة ابراهيم: ٣٠ .

(٢) سورة الفرقان: ٦٨ .

(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال :٥٢١/١٠، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٣٣/١، ٤٥٥/٣، ٨٣/٤.

(٤) سورة الروم: ٣٠ .

(٥) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب أذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ،وهل يعرض على الصبي الاسلام، رقم ١٣٥٨، ٩٤/٢، وصحيح مسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت اطفال الكفار واطفال المسلمين، رقم ٢٦٥٨، ٢٠٧٤/٤، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٣٢٨/١، ٤٣٥/٢، ٣٩١/٣ .

حديث آخر: «يقول الله عز وجل اني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»(١))(٢).

المطلب الثالث:

تأويلات اهل العلم من خلال الآيات والاحاديث الواردة

ومما ذكره الخازن –رحمه الله– أحاديث للرسول ﷺ عند تفسير لسورة التغابن بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣) والحديث ما ذكرته السيدة عائشة –رضي الله عنها– بقولها ان رسول الله ﷺ قال: (ان الله خلق للجنة اهلاً خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم، وخلق للنار اهلاً خلقهم وهم في اصلاب آبائهم)(٤) ونقل الشيخ الخازن –رحمه الله– في تفسيره حديثاً آخر في نفس الموضع وهو عن انس ﷺ ان رسول الله ﷺ قال: (وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة، فإذا أراد الله ان يقضي خلقها قال يا رب أذكرٌ أم أنثى، أشقي ام سعيد، فما الرزق، فما الاجل، فيكتب ذلك وهو في بطن أُمه)(٥).

---

(١) وبداية الحديث عن عياض بن حمار المجاشعي ان رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته(**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها واهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا اهل الجنة واهل النار، رقم ٢٨٦٥، ٢٠١٩٧/٤ ، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٣٩١/٣ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٣٩١/٣ .

(٣) سورة التغابن: ٢ .

(٤) وبداية هذا الحديث عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: دُعي الرسول ﷺ الى جنازة صبي من الانصار فقلت: يا رسول الله: طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه قال: وغير ذلك يا عائشة ثم ذكر الحديث ﷺ، صحيح مسلم، كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٦٦٢، ٢٠٥٠/٤، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٣٠١/٤ .

(٥) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ الحج: ٥، رقم ٣١٨، ٧٠/١، علماً انه جاء في البخاري يلفظ (يا رب علقة يا رب مضغة)، اما في مسلم فقد جاء بنفس اللفظ وهو ما اثبته الخازن في تفسيره، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم ٢٦٤٦، ٢٠٣٨/٤، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٣٠١/٤.

فبعد ان ساق هذه الآية الكريمة، والاحاديث النبوية الشريفة ساق تأويلات العلماء في قضية الكسب وكان مفاد اقوالهم حسب ما ذكرها الشيخ في تفسيره: من اقوال الصحابة والتابعين واهل العلم بقوله: (ومعنى الآية ان الله تعالى خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا؛ لان الله ذكر الخلق ثم وصفهم بفعلهم فقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[١] ثم اختلفوا في تأويلها)[٢].

أ- فروي (عن ابي سعيد الخدري ﷺ انه قال: فمنكم كافر حياته مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن حياته كافراً في العاقبة)[٣].

ب- (وقال عطاء بن ابي رباح[٤] -رحمه الله- فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافرٌ بالكواكب)[٥].

(١) سورة التغابن: ٢ .

(٢) لباب التأويل، الخازن: ٣٠١/٤ .

(٣) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي: ٣٢٧/٩، وينظر معالم التنزيل، البغوي، ١٠٣/٥، ولباب التأويل، الخازن: ٣٠١/٤ .

(٤) عطاء بن ابي رباح أسلم أبو محمد القرشي، الامام مفتي الحرم حدث عن عائشة وام سلمة وام هاني وابن عباس وجمع من الصحابة -رضي الله عنهم – وكان اسود ليس في رأسه شعراً إلّا شعرات وكان يطيل الصمت وقد وجد في خلافة عثمان -رضي الله عنه- توفي سنة ١١٤هـ، ينظر: سير اعلام النبلاء، الذهبي: ١٠٣/٥، وينظر لباب التأويل ، الخازن: ٣٠١/٤ .

(٥) معالم التنزيل، البغوي: ١٠٣/٥، وينظر لباب التأويل، الخازن: ٣٠١/٤ .

ت- (وقيل[١] فمنكم كافر أي: بأن الله خلقه وهم الدهرية[٢] واصحاب الطبائع[٣] ومنكم مؤمن أي: بأن الله خلقه)[٤].

ث- وهو مجمل القول الذي ذكره الشيخ الخازن -رحمه الله- الذين بيّن فيه طريق الحق من طريق الباطل بقوله: (وجملة القول فيه ان الله تعالى خلق الكافر وكفره فعلاً له وكسباً، وكسبه واختياره بتقدير الله تعالى ومشيئته، فالمؤمن بعد خلق الله تعالى إياه يختار الايمان؛ لان الله تعالى أراد ذلك منه وقدّره عليه وعلمه منه، والكافر بعد خلق الله إياه يختار الكفر؛ لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه. هذا طريق اهل السنة فمن سلك هذا اصاب الحق وسلم من مذهب الجبرية والقدرية والله بما تعملون بصير أي: انه عالم بكفر الكافر، وايمان المؤمن)[٥].

---

(١) وهو قول الزجاج -رحمه الله- ينظر معاني القرآن واعرابه، الزجاج: ١١٩/٥، وزاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي، تحقيق عبد الرزاق مهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٣هـ ، ٢٩٢/٤، ولباب التأويل، الخازن: ٣٠١/٤ .

(٢) الدهرية: وهم الذين يقولون بقدم العالم وانكار الصانع وهم الفلاسفة الذين تابعوا ارسطو بالقول بقدم العالم وقدم حركة الافلاك، ودوامها ويطلق عليهم الفلاسفة الدهرية وقال عنهم ابن القيم: انهم قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها ينظر: اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن ابي بكر ابن القيم الجوزي، تحقيق: محمد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض- السعودية: ٢٥٥/٢، والالفاظ والمصطلحات، امال عمرو :٣٨٥.

(٣) وهم الذين يقولون بأن اصول العالم اربعة حرارة و برودة، رطوبة ويبوسه، وسائر الحوادث كلها تتولد من هذه الاصول ينظر: مقالات الاسلاميين، الاشعري: ٢٣٩/٢، والانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، العمراني: ٢٤٥/١ .

(٤) لباب التأويل، الخازن: ٣٠١/٤، وينظر: الكشف والبيان، الثعلبي: ٣٢٧/٩، ومعالم التنزيل، البغوي: ١٣٠/٥ .

(٥) لباب التأويل، الخازن: ٣٠١/٤ .

والذي اتضح لي من كل ما سبق من تفصيلات الشيخ –رحمه الله– وما ذكره اهل العلم، ان لابد للعبد من الايمان بالقدر ؛ لأنه أحد اركان الايمان ودليل ذلك قول الرسول ﷺ (وان تؤمن بالقدر خيره وشره من الله)[١] ؛ ولأنه من تمام توحيد الربوبية لله تعالى وبه يتحقق التوكل على الله تعالى وتفويض الامر اليه سبحانه وحده، مع القيام بالأخذ بالأسباب الصحيحة النافعة. علماً ان مسألة القضاء والقدر التي واجهها العقل الانساني في جميع الاديان ومذاهب الحكمة والفلسفة؛ لأنها مسألة الحرية والارادة المختارة[٢].

والباحث يؤيد (ان العبد غير مجبور في افعاله واقواله، وانها ليست بمنزلة حركة المرتعش وحركات الاشجار، الرياح وغيرها، وليست مخلوقة للعباد بل هي فعل العبد وكسبه وخلق الله تعالى)[٣]، وعلى هذا فقد وهب الله عز وجل عقلاً وبه جعل مناط التكليف، وعلى هذا كان الانسان مسؤولٌ عن كسبه بدلي قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٤]، والذي عليه اهل السنة والجماعة، محصلة ذلك كله، ان كل شيء بقضاء الله تعالى وقدره وخالق افعال العباد قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٦]، وان الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاءه ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاءوه كوناً ولا يرضاه ديناً.

---

(١) الحديث فصل الايمان

(٢) ينظر: حقائق الاسلام واباطيل خصومه، محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت: ٨٢ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن ابي العز: ٢/٧٩٠ .

(٤) سورة المدثر: ٣٨ .

(٥) سورة القمر :٤٩ .

(٦) سورة الفرقان: ٢ .

الخاتمة

حريٌّ بنا في نهاية هذا البحث ان نتعرف على اهم ما توصلت اليه من نتائج عن طريق هذا الموضوع وكانت كالاتي:

١- ان هذا الشرح يعد اصل لكثير من الشروح المعاصرة او التالية له، ولا تجد شارحا للقران الكريم الا وقد افاد منه، وكثر ما نقل عنه ابن حجر رحمه الله وغيره.

٢- اثبت في البحث ان عقيدة الشيخ الخازن رحمه الله هي عقيدة الاشاعرة، يدل عليه انه يتبع في عرضه في المادة العلمية طريقة الاشاعرة في عرض مسائل العقيدة مثل: اليد والسمع. وغيرهما علما انه يرجح اقوال الاشاعرة وعدها الحق في كثير من الاقوال.

٣- عن طرق القراءة الدقيقة تبين ان الشيخ الخازن رحمه الله كان عالما في الوان العلوم لا سيما علوم النحو والصرف والمنطق، وهذا ما تطلبه مهمة شرح القران الكريم.

٤- بيِّن مقالاً أبدى الشيخ الخازن –رحمه الله– لهذه المسألة بأن الله تعالى عالم بكل ما هو كائن قبل تكوينه، فجاز أن يقول لها كوني ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

٥- لم أقف على كلام لأحد من السلف أنه فرّق بين القضاء والقدر فهما من خلق الله –عز وجل– وإيجاده، وإن الإيمان بهما أصل من أصول الإيمان .

٦- ناقش الشيخ الخازن –رحمه الله– مسألة القدر مناقشة علمية، رد فيها أقوال الجبرية والمعتزلة والقدرية .

٧- بعد عرض المقالات في القضاء والقدر، نصر رأي أهل السنة بأن الأشياء كلها بقدر الله تعالى، خلقه وإيجاده سبحانه والعبد يكسب، وثواب العبد وعقابه متعلق بكسبه الذي هو إرادته الخير والشر .

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لإتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

١- الارشاد، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله بن حيويه الجويني النيسابوري، تحقيق د. محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م.

٢- الاعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٣- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، تحقيق: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية – بيروت.

٤- الانتصار للقرآن، محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، تحقيق: محمد عصام القضاة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٥- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١ م .

٦- التوحيد، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د. فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية –الاسكندرية .

٧- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي أبو عيسى، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨م .

٨- شرح القصيدة الدالية، أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني الحنبلي، شرح: عبد الرحمن بن ناصر البراك، عناية: ياسر بن سعد بن بدر العسكر، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٩- شرح الاصول الخمسة، القاضي عبد الجبار بن احمد الاسد ابادي، تحقيق: د. فيصل بدير عون، ١٩٩٨م .

١٠- شرح السنة، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١١- شرح العقيدة الطحاوية، ابن ابي العز محمد بن علاء الدين، الحنفي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

١٢- شرح صحيح البخاري، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية/ الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

١٣- شرح صحيح مسلم، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

١٤- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

١٥- غريب الحديث، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني - بغداد، ط١، ١٣٩٧هـ .

١٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، اخرجه وصححه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ .

١٧- القضاء والقدر، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع – الأردن، ط١٣، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

١٨- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق ، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

١٩- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن ، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ .

٢٠- المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي – بيروت.

٢١- معالم التنزيل، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

٢٢- معالم السنن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية – حلب، ط١، ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢م.

٢٣- معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله أبيات، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٤- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية- دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٥- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، ط٣، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٢٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن محمد الجزري إبن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٣م .